

٤٤ - المصريون المحدثون

شمائلهم وعاداتهم

في النصف الأول من القرن التاسع عشر

تأليف المستشرق الإنجليزي اورورد وليم لين

للأستاذ عدلى طاهر نور

تابع الفصل الثالث عشر - الأعراس

يمكن أن نغزو ميل المصريين إلى اللذات الشهوانية وفساد أخلاق الكثيرات منهن إلى عدة أسباب ينسب بعضها إلى المناخ والبعض الآخر إلى حاجتهن إلى التعليم المناسب والتسوية البريئة والاشتغال بعمل . ولكن ذلك يرجع على الأكثر إلى سلوك الأزواج أنفسهم ، وهو سلوك أكثر خزيا لهم من الصرامة الشديدة التي يستعملونها في تنظيم الحريم . فجميع الأزواج في مصر يسمون إلى تحريك شهوة نساءهم بكافة الوسائل التي في قدرتهم ، مع أنهم في الوقت ذاته يكفون ويثابرون لمنع زواجهم من إشباع هذه الشهوة بطريق يخالف الشرع . وهم يسمجون للنساء بالإصغاء من وراء الشبائيك إلى الأغاني الخليعة والروايات الفاحشة التي ينشدها في الشارع رجال يؤجرون لذلك ، كما يسمجون لمن يشاهده رقص (التوازي) النهواني «والخولات» الخشيين . ويأذنون للقوازي ، وحرقةن الدعارة ، بدخول حريم الأغنياء ، لا لتلبية السيدات بالرقص فحسب بل لتعليمهن الفنون الشهوانية . وقد يجلب أحيانا لتسوية الحريم دمي لا حشمة فيها روى لي عن كيد المصريين حكايات لا حصر لها . أذكر نموذجاً منها القصة التالية وقد حدثت أخيراً : تزوج نحاس شابة جميلة من هذه المدينة ، وكان يملك مالا يهيئ له عيشاً رغداً ، ولكنه فقد أكثره ، فكان له في ثروة امرأته عوض . ولم يلبث الرجل مع ذلك أن أهمل زوجته . ولكنه كان قد قضى عهد الشبان فلم تكثرت زوجه لذلك ، ومالت إلى رجل آخر يعمل زبالاً وكان قد تعود الحضور إلى منزلها . فاشترت لهذا الزبال دكاناً بجانب المنزل ونفحته مبلتاً من المال يصلح به شأنه . ثم أخبرته أنها ابتكرت طريقة ليزورها في اطمئنان تام . وكان لحرعها شباك بمصراعين قامت أمامه على قرب منه نخلة تملو المنزل ، فلاحظت أن الشجرة تقدم لمشيقتها وسيلة للوصول إلى غرفتها والهرب منها

وقت الخطر . وكان لها خادمة واحدة تمهدت بمساعدتها على تحقيق رغباتها . وفي اليوم السابق لأول زيارة لمشيقتها أمرت خادماتها أن تحبر الزوج بما سيحدث في الليلة التالية . فغزم الزوج على مراقبة زوجه ، وأخبرها أنه لن يعود إلى المنزل تلك الليلة ، ثم اختبأ في غرفة سفلى . ولما جن الليل جاءته الخادمة تحبره بحضور الزائر إلى الحريم فصعد إلى أعلى ولكنه وجد باب الحريم مغلقاً . وعند ما حاول فتحه سرخت زوجته ، وحينئذ هرب عشيقها من الشباك عن طريق النخلة . واستغاثت الزوجة بجيرانها وأخبرتهم أن لصاً في دارها . ولم يلبث أن حضر كثيرون منهم فوجدوها قد أوصدت باب غرفتها على نفسها وزوجها في الخارج ، فأخبروها أن ليس بالبيت غير زوجها وخادمها ، فقالت إن من يدعونه زوجها هو اللص لأن زوجها بيت خارج المنزل . فأخبرهم الزوج حينئذ بما حدث وأكد أن رجلاً معها ، وكسر الباب وبحث في الغرفة ولكنه لم يجد أحداً . فلامه الجيران وشمته زوجته لافتراءه عليها . واصطحبت في اليوم التالي اثنين من جيرانها الذين حضروا على صراخها ليشهدا أن زوجها قدنفها في عرضها وأهمته في المحكمة أنه رمى امرأة عفيفة دون رؤية أو شهود . فحكّم عليه بثمانين جلدة تيمناً لشرعية «والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة» . وطلبت الزوجة بعد ذلك من زوجها أن يطلقها فرفض . وعاشا معاً ثلاثة أيام بعد هذا الحادث في سلام . وفي الليلة الثالثة دعت الزوجة عشيقها ليزورها وقيدت زوجها يديه ورجليه أثناء نومه وشدته إلى حشيته . وجاء عشيقها فأيقظ الزوج وهدده بالموت الماثل إن صاح . ومكث مع الزوجة ساعات في حضوره . ولما خرج المتدنى فكثت الزوجة ونأق زوجها ، فتأدى الجيران وأخذ يضربها بقسوة وهي تستغيث . وحضر الجيران ورأوه هائجاً ، فلم يشكوا في قولها أن الرجل مجنون . فخلصوها من قبضته وهم يحاولون تهدئته بالكلام اللطيف ويدعون الله أن يشفيه . وأسرعت الزوجة باستدعاء رسول القاضى وذهبت معه هي وزوجها وكثير من الجيران الذين شاهدوا الحادث إلى القاضى . وأجمع الجيران على أن الزوج مجنون فأمر القاضى بوجوب إرساله إلى المارستان (١) . ولكن الزوجة تكلفت

(١) وينظفها العامة مرستان بضم الميم وكسر الراء (الؤلف) ذكر المؤلف كلمة مارستان بكسر الراء والمروّف فتح الراء . وهذه الكلمة فارسية أصلها بمارستان مركبة من بيار بمعنى مريض وستان بمعنى مكان ثم اختصرت فصارث مارستان . انظر المرّب من الكلام الأجمعي لأبي منصور الجواليقي طبعه دار الكتب ١٣٦١ هـ (المترجم)

فاسترد ملابسه وقصد دكانه . ولم تلبث السيدة التي افتقدت الكيس أن ذهبت إليه واتهمته بأخذه . ثم أخبرته أنها لا تريد نقوداً ولكنها تبني رفقته فقط . ورجته أن يعود إليها في الليلة التالية ، فوعده بالحضور . غير أن إحدى خادمت السيدة حضرت إلى دكان التاجر عصرًا وأخبرته أن سيدتها مرضت بمض السم في الماء لتقدمه إليه . ويقال إن المرأة كثيراً ما تختار هذه الطريقة لتنتقم من عشيقها لأقل إهانة .

بندر أن ترتكب الزوجة المسلمة الزنا دون أن تعاقب بالموت إذا شهد على الواقعة أربعة شهود . ويرفع الشهود أو الزوج دعوى الزنا . وقلمًا تنجو الزانية من العقاب إذا ضبطها أحد الضباط . فلا يلزم في الحالة الأخيرة شهود أربعة ، وإنما تعدم المرأة سرًا ، إذا كانت من عائلة محترمة ، تحت سلطة الحكومة الاستبدادية . غير أن الرشوة قد تخلصها أحياناً لأنها تقبل دائماً إذا لم يكن هناك خطر . وتكاد عقوبة إغراق الزانية تجل الآن محل الرجم في القاهرة وغيرها من مدن مصر الكبيرة .

ويحكى أن امرأة فقيرة من هذه المدينة تزوجت من بائع طيور؛ وبينما هي تعيش مع زوجها وأنها في سكن ، اتخذت ثلاثة مساكن أخرى وتزوجت ثلاثة أزواج آخرين كانوا جميعاً بتهنيبون عن القاهرة . وحسبت هكذا أنه يسهل عليها إذا جاء أحد الثلاثة إلى المدينة لبعض أيام أن تجد عذراً للذهاب إليه . ولكن حدث لسوء حظها أن قدم الثلاثة في اليوم نفسه وذهبوا في مساء ذلك اليوم يسألون عنها في منزل أمها . فارتبكت لحضورهم معاً ولوجود زوجها الأول أيضاً . فظاهرت بالمرض وسرياً ما تصنعت الإغماء ، فحملها أمها إلى غرفة داخلية . واقترح أحد الأزواج إعطاءها شيئاً يقويها . وأراد آخر تجربة دواء مختلف . وأخذ الجميع يتناقشون في أي الأدوية أفضل .

وقال أحدهم : « سأعطيها ما يحلو لي . أليست امرأتى ؟ » فصاح الآخرون في صوت واحد : « امرأتك ! إنها امرأتى » وأثبت كل منهم زواجه . فقدمت الزوجة إلى المحكمة وحكم بإدانتها وقذف بها في التليل . وقد حدث حادث مشابه لهذا أثناء زيارتي الأولى فقد تزوجت امرأة ثلاثة من جنود النظام ، فدفنت في حفرة إلى صدرها وأعدمت بالرصاص

هذه مظاهر نور

إلى صدرها وأعدمت بالرصاص

الشفقة والتمس السماح لها بتقييده في غرفة من غرف منزلها حتى يمكنها أن تخفف من آلامه بالاعتناء به . فوافق القاضي مثنياً على عطف المرأة وداعياً الله أن يكافئها . وحصلت الزوجة بعد ذلك على طوق من حديد وسلسلة من المارستان . وقيدت زوجها في حجرة سفلى من المنزل . وجعل عشيقها يزورها كل ليلة في حضور الزوج . ثم تلج عليه بعد ذلك ليطلقها بلا جدوى . وكان الجيران يحضرون يومياً للسؤال عنه . فيشكو لهم من امرأته ويتهمها فلا يجيبونه بغير قولهم : « شفاك الله ! شفاك الله ! » واستمر هكذا شهراً فلما تبين للزوجة إصراره على الرفض أرسلت في طلب حارس من المارستان لينقله إليه . والتف الجيران حوله عند خروجه من المنزل وصاح أحدهم : « لا حول ولا قوة إلا بالله ! شفاك الله ! » وقال آخر : « يا خسارة . . . كان رجلاً فاضلاً حقاً ! » وقال ثالث ملاحظاً : « حقاً . . . إن الباذنجان ^(١) كثير الآن ! . . . » وأخذت الزوجة تزور زوجها كل يوم في المارستان ملحة في طلب الطلاق وهو يرفض . فتقول له : « ستظل إذن مقيداً حتى تموت ، وسيأتي عشيقى عندي على الدوام ! » وأخيراً رضى الزوج بالطلاق بعد حبس سبعة أشهر . فأخرجته من المارستان ونفذ وعده . وكان عشيق الزوجة من طبقة دون طبقتها فلا يمكن أن يكون زوجها لها فيقت عذبة وظلت تستقبله متى نشاء . غير أن الخادمة كشفت من حقيقة الأمر . ولم يلبث الحادث أن أصبح حديث الناس .

تعرض الزانية إذا كانت زوجة لثرى أو لثى منصب ، كما يتعرض عشيقها ، لأهوال عظيمة ^(٢) . وقد حدث أخيراً أن انتهزت زوجة أحد ضباط الجيش الكبار فرصة غياب زوجها عن العاصمة ، فدعت لزيارتها تاجراً مسيحياً اعتادت أن تشتري منه الحرائر . فذهب التاجر إلى منزلها في الوقت اللعين فوجد عند الباب أحد الأعوات قاده إلى منزل آخر وجعله يتنكر في ملابس سيدة . ثم عاد به وأدخله على سيدته . وقضى التاجر الليل كله تقريباً في بيت المرأة ، ثم نهض قبل أن تستيقظ وأخذ في جيبه كيس نقود كان قد أعطاه إياها . ونزل إلى الأنا ليقوده مرة أخرى إلى المنزل الذي تنكر فيه .

(١) يقال إن الجنون ينتشر ويشد في مصر في موسم الباذنجان الأسود

(٢) وقال لى أحد الأصدقاء : كم رجل قد حياته بسبب النساء !

لقد كان يعيش في هذا المنزل الذي تنكره الآن شاب خليع جيل الصويرة . وقد قطع رأسه هنا في الطريق أمام باب منزله لعلاقة أئيمة مع زوجة أحد البكوات . وقد بكت نساء مصر جميعاً .

حكم في القضية ٢٥٢ هـ كركية الموسكى سنة ١٩٤٢ بمجلس محمد محمود البنا عشرة أيام بالمثل وتقرم كامل موسى اسماعيل عشرة جنينيات ليحما خبزاً بأزيد من السر المحدد بمجدول الأسعار